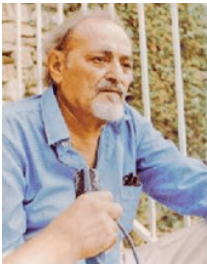


هل تأر يوسف الخال من انطون سعاده؟ - جان داية



جان داية

في العام 1976، التقيت بالأب جاك اماتاييس السالسي في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت، فاعلمني انه بصدد دراسة عن يوسف الخال وحركة الشعر الحديث التي يرأسها. وسألني عن صحة المعلومات اللتين تفيد أولاهما بان الشعراء القومييين الاجتماعيين يشكلون المحور الرئيسي للحركة، فيما تفيد الثانية بأن مفهوم الحداثة الذي تؤمن به الحركة يطبقه رئيسها وأعضاؤها في قصائدهم، هو نفسه الذي أكد عليه أنطون سعاده في كتابه "الصراع الفكري في الأدب السوري". أجبتة عن المعلومة الأولى بالإيجاب، منوها بأدونيس ومحمد الماغوط ونذير العظمة وفؤاد رفقة وخالدة سعيد واسعد رزوق ويوسف الخال الذي ترك الحزب ولكنه لم يترك المبادئ الإصلاحية في العقيدة أسوة بمعظم نظرائه ومنهم غسان تويني. وعن المعلومة الثانية أكدت على أن الشعراء القومييين في الحركة استوحوا (الصراع الفكري) في قصائدهم ودواوينهم.



يوسف الخال

وفي شباط 2004 صدر الكتاب تحت عنوان يوسف الخال ومجلته شعر. وقد امتد على طول 300 صفحة من القطع الكبير، وامتألت صفحاته بالمراجع والمقابلات الحية والمخطوطات. ويمكنه تلخيص مضمونه بهذه العبارة التي أوردها المؤلف في الصفحة 31 "رغم انفصاله عن الحزب نظاميا، ظلَّ يوسف الخال

متأثراً بأجوائه الثقافية إلى مدى بعيد. فرؤيته، والكثير من مواقفه وأفكاره التي سيبشر بها في مجلة شعر وكتاباته اللاحقة، تذكرنا بنظرة أنطون سعادة إلى الحياة والكون والفن، كما عبر عنها في كتابه الصراع الفكري في الأدب السوري. الآن، بعد 42 سنة من لقائي بالمستشرق الأب جاك، و14 سنة من صدور كتابه، أضيف على السؤالين المتمحورين على هوية "خميس شعر" الأدبية العقدية، سؤالاً ثالثاً يتمحور على ثأر رئيسها يوسف الخال من زعيمه أنطون سعادة



انطون سعادة

ولنبداً الإجابة على السؤال الثالث. إثر عودته من مغتربه القسري في 2 آذار 1947، ووجه سعادة بثلاث مشكلات كبيرة، واحدة خارجية مصدرها السلطة اللبنانية التي استقبلته بمذكرة توقيف. وثانية داخلية عقدية بقيادة رئيس الحزب نعمة ثابت، تستهدف لبننة العقيدة والحزب. وثالثة داخلية ثقافية، بقيادة عميد الثقافة فايز صايغ، تحاول اعتماد الفرد أو الشخص محورا وهدفا للقيم العليا كالحرية، التي يقول بها الفيلسوف الروسي نيقولاي برديايف (1874-1948)، بدلا من محورية المجتمع التي يقول بها سعادة. والمشكلات الثلاث متداخلة، بحيث إن السلطة اللبنانية كانت تدعم بقوة نعمة ثابت، الذي يدعم بدوره فايز صايغ. ولنكمل المقال في اطار المشكلة الثالثة التي هي موضوع هذا المقال، حيث يُعتبر يوسف الخال أحد أبطالها. حين أصدرت السلطة اللبنانية مذكرة توقيف سعادة خدمة لحلفائها في قيادة الحزب القومي، لم تكن تعلم أنها قدّمت هدية كبيرة لزعيم الحزب. فالمذكرة التي رفض سعادة تنفيذها، أدت إلى اصطافاف أعضاء الحزب وكوادره وبعض مسؤوليه إلى جانب زعيمهم. وعندما أُلغيت بعد أشهر، حاور سعادة ثابت ومجموعته، وصايغ ومجموعته، لإقناعهم بالعودة عن انحرافهم العقدي والثقافي. وعندما رفضوا، طردهم، من غير أن يقف احد من الحزب معهم.

بعد اقل من عشر سنين، أسس يوسف الخال جمعية أدبية بهدف إبداع الشعر الحديث. وحدد مبادئها، عبر محاضرة ألقاها في (الندوة اللبنانية) بتاريخ 31 كانون الثاني 1957، على النحو التالي: "المبدأ الأول: مفهوم جديد للشعر مستمد من الآداب الغربية. ويحل محل المفهوم العربي التقليدي الذي يقول إن الشعر هو الكلام الموزون المقفى. ففي الآداب العالمية، الشعر قد يكون موزوناً وقد يكون مقفياً، ولكنه فوق هذا كله عمل فني إنساني خلاق يعبر عن خبرة كيانية شخصية فريدة صادقة تعكس قضايا الإنسان الأزلية، فتتعدى حدود الزمان والمكان" وبالمقابل، يستعمل سعادة كلمة (التجديد) بدل (التحديث)، فيقول في كتابه الصراع الفكري في الأدب السوري فصل من الظلمة إلى النور: "يصعب علي كثيراً أن أتصور أن مجرد درس الأدب الإنترناسيوني الحديث يكفي لإيجاد نهضة أدبية فنية أصلية في سورية". وفي فصل تجديد الأرب وتجديد الحياة يقول سعادة: "إن التجديد في الأدب هو نتيجة حصول التجديد أو التغيير في

الفكر وفي الشعور، في الحياة وفي النظرة إلى الحياة، هو نتيجة حصول ثورة روحية مادية اجتماعية سياسية تغير حياة شعب بأسره، وتفتح آفاقاً جديدة للفكر وطرائقه وللشعور ومناحيه“.

ويتساءل سعادته في الفصل الأخير طريق الأدب السوري “لقد نشأت نظرة إلى الحياة والكون والفن جديدة في سورية، فهل يتنبه لهذه الحقيقة أدباء سورية، وخصوصاً شعراؤها، ويلبون هاتف الدعوة، ويوجدون هذا الأدب الغني بالقضايا الفكرية والشعورية التي كانت كامنة في باطن نفسيتنا حتى ظهرت في النظرة الجديدة إلى الحياة؟” إذا قارنا بين نظرة الخال للشعر الحديث، ونظرة سعادته للشعر الجديد، نجد فوارق عديدة، أكتفي في هذه العجالة بالإشارة إلى الأساسية منها: إن الخال يدعو الشعراء اللبنانيين إلى الآداب الأجنبية وشعرائها الكبار أمثال ت.أس. إليوت وعزرا باوند، كي يستمدوا منها المفهوم الجديد للشعر الحديث. في حين يدعوهم سعادته إلى اعتناق النظرة الفلسفية الجديدة إلى الحياة والكون والفن، التي أبدعها هو نفسه. أعود إلى السؤال-العنوان لتأكيد أو نفي ثأر الخال من سعادته. مما تقدم، نستخلص الحقائق الثلاث التالية:



نذير العظمة

1- رغم أن سعادته هو الذي طرد الخال من الحزب بسبب انحرافه العقدي، لبي عدد من أبرز شعراء الحزب دعوة الخال أمثال أدونيس ونذير العظمة ومحمد الماغوط، بعد أقل من عشر سنين من اغتيال أركان السلطة اللبنانية التي دعمت ثابت وصايغ، أنطون سعادة. وباستثناء نذير العظمة، فإن سائر الشعراء والأدباء القوميين الاجتماعيين الذين انتموا إلى “خميس شعر”، تركوا الحزب ومبادئه الأساسية ونظرتهم الفلسفية الجديدة، بعد انتمائهم إلى الجمعية الأدبية ذات الخلفية العقديّة التي أسسها يوسف الخال.

2- ابدى هؤلاء اهتماماً ملحوظاً بالشعراء الفرنسيين والإنكليز الكبار، فدرسوا شعرهم وسيرة حياتهم، وأعجبوا بهم وآمنوا بنظرتهم إلى الحداثة. وهنا، يجب استثناء محمد الماغوط الذي كان يجهل الفرنسية والإنكليزية. وهذا واضح من كتاباتهم المنشورة في مجلة “شعر”. يقابل ذلك غياب كامل في نتاجهم، لسعادته ومفهومه التحديثي للشعر. طبعاً، لو كان اطلاعهم على الشعر الفرنسي والإنكليزي بهدف تعميق ثقافتهم الأدبية، لباركه سعادته فيما لو تم قبل اغتياله. ذلك أنه كان قيّومهم في الاطلاع على نتاج المبدعين الأجانب



محمد الماغوط

3- عتموا على أبرز نتاجهم الشعري الذي أبدعوه خلال اعتناقهم عقيدة سعادته وانضوائهم في حزبه وإيمانهم بمفهومه التجديدي للشعر. وإذا أخذنا أبرزهم، أي أدونيس، نجد، على سبيل المثال، أن معظم ديوان "قالت الأرض" الذي كتب مقدمته سعيد تقي الدين، قد غاب عن أعماله الشعرية الكاملة، ناهيك بسائر نتاجه الشعري خلال حياته الحزبية التي استمرت 15 سنة.